بين العلم والفن

■ د . نوري جعفر ■

بين العلم والفن روابط متعددة واثار ايجابية متبادلة ، كما ان بينهما فروقا واضحة تصل احيانا الى حد التباين فجوهر العلم ـ او طابعه العام المشترك بين فروعه المتعددة ـ يتجلى في نزعته نحو التعبير عن الطبيعة « الجامدة والحية » تعبيرا موضوعيا دقيقا وامينا بعيدا عن المشاعر او الانفعالات .

في حين ان الفن يمتزج بشكل او باخر الى هذه الدرجة او تلك عند تعبيره عن الطبيعة والمجتمع بمشاعر الفنان وبنظرته الفنية الجمالية الى الامور . والعلم يسير ـ من الجهة الثانية ـ وفق معطيات نظرية ومباديء عامة او قوانين لايجوز تخطيها او الخروج عليها . في حين ان الفن يتأثر من ناحية محتواه بحالات فردية سايكولوجية خاصة يعيشها صاحبها في هذه اللحظة او تلك . وهذا يعني ـ بعبارة اخرى ـ ان المباديء العلمية ظواهر موضوعية مسلم بها « من الناحية النسبية بالاقل »

اما المباديء الفنية فانه وان وجدت قواعد عامة موضوعية الا ان الطابع الذاتي للفنان « الاصيل بصوره خاصة » يتخطاها في كثير من الاحيان ، وهذا هو الذي يجعل اللوحة الفنية الانيقة او التمثال الرائع او القصيدة العصماء او القطعة الموسيقية الفذة تحتمل أكثر من معنى وتنطوي على أكثر من استنباط واحد بعكس النظرية الصناعية او المعادلة في الرياضيات وتلعب لغة الفن دورا بارزا في هذا المجال وبخاصة المجاز وهذا هو احد الفروق الكبرى بين العلم والفن .

وفرق جوهري اخر بينهما هو ان النظريات العلمية كثيرا ما تصبح بالية ومغلوطة او ناقصة بفعل التطور العلمي اللاحق ، اما الفن الاصيل فانه يسير بشكل مختلف يتحدى الزمان والمكان ولهذا فاننا نجد الفن القديم يبنى جنبا الى جنب مع الفن الحديث وقد يفرده في الروعة والجمال مع احتفاظه برونقه عبر الاجيال .

وفرق جوهري ثالث بينهما هو ان الفن لاسيما الشعر مشبع كما ذكرت بالمجاز والمبالغة بعكس العلم الذي يفسده المجاز عند استخدامه مصطلحا غامضا يثير الالتباس .

توصل بعض المعنيين بدراسة العلاقة بين العلم والفن ـ عند الموازنة بينهما ـ الى استنباطات كثيرة غير دقيقة بنظرنا من ناحية طبيعة الانتاج العلمي والفني ومن حيث الخصائص المميزة لكل منهما . وهي كثيرة ابرزها وأكثرها انتشارا قولهم مثلا : ان العلم ذو نتائج تطبيقية عملية .

في حين ان الفن بنظرهم خلو من ذلك . معنى هذا ان للعلم اغراضا اخرى خارج اطاره النظري بينما غرض الفن ذاتي جمالي كامن في طبيعته . ان هذا الرأي وان كان معقولا ومقبولا من بعض الوجوه وفي بعض الاحيان الا انه ـ على مانعتقد ـ ليس صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق وذلك لان العلم النظري في ارفع مستوياته التجريدية في الرياضيات كنظرية المجاميع والبتولوجيا يقترب من الفن الى درجة الانصهار احيانا ، كما ان الفن بدوره ليس منعزلا انعزالا تماما ومطلقا وفي جميع الاحوال عن الحياة الاجتماعية وعن السيطرة على الطبيعة من ناحية كون الفن « في اضعف الاحتمالات » عامل حفر وتنشيط للسيطرة على الطبيعة . واذا كان العلم يتيح للانسان الادوات التكنولوجية في فعالية الطبيعة فان الفن يمده بالارادة السايكولوجية ويكشف له في الوقت نفسه مواطن الجمال والاناقة في الطبيعة .

واستنباط اخر ينحو ذلك المنحنى يتضح بقولهم مثلا : ان العلم يعبر تعبيرا موضوعيا دقيقا وامينا عن الطبيعة ويتعامل معها بالرموز والمعادلات الرياضية ـ التفكير المنطقي ـ .

في حين ان الفن يتجه بنظرهم اتجاها معاكسا ويستند الى الصور الذهنية الحسية والى الخيال ، وهذا القول مردود ايضا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق : ففي العلم والفن ضياء ومنطق وتفكير بالرموز والصور الذهنية الحسية مع اختلاف نسبي بينهما كمي وليس نوعيا .

يتضح ان هناك اوجه اختلاف وتشابه بين الفن والعلم . وانهما معا يعبران عن الطبيعة المحيطة بالانسان ولكن كلا منهما ينظر اليها بعين غير العين التي ينظر منها اليها الاخر .

وان الانسان يحتاج الى كل منهما وان حاجته الى الفن لاتقل اهمية والحاحا عن حاجته الى العلم وذلك لان العلم والفن طرفا ثقافة انسانية مشتركة . فلا يطغى العلم « الذي هو اساس تقدم الحضارة المادية » على الفن « الذي هو سجل المشاعر الانسانية النبيلة ازاء الطبيعة والمجتمع » بل يكمل احدهما الاخر . ومن الجهة الثانية فان تكامل شخصية تستلزمهما معا .

فالجيل المزود بالعلم وحده قد يقصر عن اداء التزاماته الاجتماعية ، كما ان الجيل المزود عن طريق الفن بمشاعر انسانية وحدها دون معرفة علمية يصبح عاجزا ان يساهم بمشاعره وحدها . عن اداء دوره الايجابي الفعال في تقدم المجتمع .

هناك فئة كبيرة من رجال الفكر البارزين في المجتمع العربي الاسلامي وفي الغرب ابدت اهتماما كبيرا بالفن ، وهذا واضح مثلا لدى الطبيب العربي المشهور الحارث بن كلدة الذي اشتهر بالعزف على العود في عهد الخلفاء الراشدين . ولدى الكندي «١٨٥ـ٢٥٢ هـ» والفارابي «٢٥٧ـ٣٣١ هـ » وابن سينا «٣٧٠ـ٤٢٨ هـ» وكما ظهر ذلك ايضا لدى اينشتين «١٨٧٠ـ١٩٥٥» ونيلز بوهر «١٨٨٥ـ١٩٦٢» ومن طريف مايروى عن اينشتين انه قال : تعلمت من الاديب الروسي دوستويفسكي في مجال الفيزياء والرياضيات أكثر مما تعلمته من نيوتن «١٦٤٢ـ١٧٢٧» وثرس «١٧٧١ـ١٨٥٥» وذكر ايضا في احدى لمحاته ان الخيال العلمي ينطوي دائما على عنصر شعري وان موسيقى باخ تذكره دائما بالمنطق الرياضي ومعلوم انه كان يعزف على الكمان ويصغي الى موسيقى باخ «١٦٨٥ـ١٧٥٠» وموزارت «١٧٥١ـ١٧٩١» وهايدن «١٧٣٢ـ١٨٠٩» .

ومن طريف مايروى عن نيلز بوهر انه تطرق في مناسبات عديدة الى العلاقة بين الفن لاسيما الموسيقى وبين التفكير العلمي النظري واطرى على الموسيقى من حيث قدرتها على التحليق بالفكر العلمي النظري الى مستوى اعلى في الاناقة والانسجام .